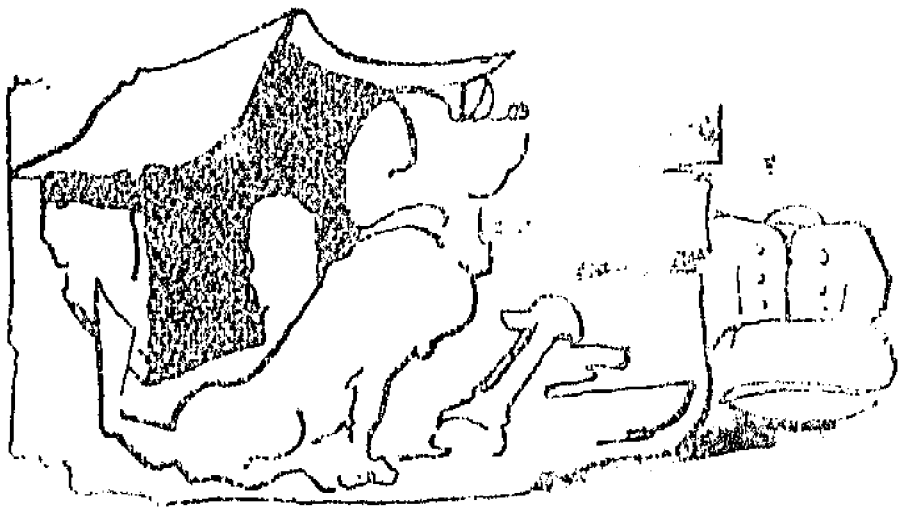




هذه القصة يقصها علينا طفل في السادسة
من عمره ، فيحملنا بها الي دنياه . . دنيا
قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع
أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيما يشابهها
زمناً رغداً . . زمناً ليت اليا لي التي أمضته
ترجمه . .

فخيل كلبي ..

كننا
نجلس في مخبئنا السرى — أنا وأخى الأكبر —
وهو « عشة » من البوص على شاطئ النيل كانت
تستعمل مصلّى قبل أن يبنى المسجد الجديد — وقد نشر
أخى أمامه صورة كلين أحدهما رابض والآخر مضطجع ،
وكان قد قطع الصورة من إحدى المجلات . ونظر إلى أخى
متسائلا :

— مارأيك ؟

فأجبتّه وأنا أحملق في الكلبين بنظرات معجبة :

— رائعان !

وسادت فترة صمت كان أخى ينصت خلالها بأذنيه كما أنه

يتسمع شيئا ثم قال :

— يخيل إلى أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

— لا بد لنا أن نخفي الصورة وإلا رآها أبى . . أين

تظننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الإجابة بل أردف قائلا :

— سأخفيها في حذائه .

ونظرت إليه في دهشة وقلت له معترضا :

-- ولكن

ولكنه لم يدع لي فرصة الحديث إذ كان يستطيع
التحدث أسرع مني ، وكانت كل محاولة في مناقشته تذهب
سدى ، لقد كان في التاسعة وكنت في السادسة ، واستمر
يقول :

— ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد.
وتخيلت حذاء أبي . . ثم تخيلت أبي نفسه ، وأحسست
برعب مجرد التخيل ، وهزرت رأسي بشدة ولكنه قال :
— لا تكن أبله . فأنت تعلم أنه لا يرتديه إلا في المولد .
أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة
لتتولى أنت إخفاءها في الحذاء .

ولكني هزرت رأسي مرة أخرى . لقد كنت أكره
أن ألقى بيدي إلى التهلكة ، وكنت أرى في المسألة جرمين :
أحدهما إدخال صورة كلاب في الدار ، والثاني العبث
بحذاء أبي . . فالحقاب مضمون . . لأن أبي لا يرحم
مذنبا ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلا ضخما يطأطئ
رأسه عندما ينفذ من أي باب ، وكانت أمي تقول
عنه إنه طيب القلب ، ولكني لم أكن أصدقها لأنى مارأيت
كذلك قط ، وكيف أراه طيباً وقد خصص لنا عصا

لتأديبنا إذا أخطأنا . . أو إذا خيّل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت إلى الدار ، ذهبت إلى أبي وقلت له :
— نريد كلباً . . أنا وأخي .

ورفع إلى رأسه في دهشة وقال :

— ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف به أجيب ، ووقفت أمامه صامتاً ، وأخيراً
تكلم هو قائلاً :

— لا فائدة في الكلاب . . إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت إلى أخي الذي وثب من فراشه وسألني متلهفاً :
— ماذا قال لك ؟

— لقد قال إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمي ، فقلت لها إنني لا أحب أبي ،
فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

— إن الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

— وهل كل الآباء في رداة أبي ؟

— إنه ليس رديئاً ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال .

هيا إلى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث إلى أبي بصوت لم
أميز منه إلا بضعة كلمات « إنهم أطفال ، ولا بد لكي تفهمهم

أن تفكر بعقلهم ، ، ولم أفهم معنى ما تقصد ، ولم أهتم بذلك كثيراً ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .
واضطجعت على الفراش بجوار أخى ، وسمعتة يقول
كأنه يحدث نفسه :

— الكلاب لا تؤكل ولا تشرب !! والله لو أحضرنا
كلباً لا كاه وشرب دمه . . . إنه رجل مخيف !!
ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقاً
فى التفكير ، وأخيراً سألت أخى :
— أظنه يأكل كاه ؟ بجلده ؟

وكان أخى قد أغفت عيناه ، فأجابنى وهو نصف نائم :
— يأكل ماذا ؟
— الكلب .

— لا . . لا أظنه حقيقة من آكل الكلاب . نم . نم .
دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك . . وفى ذات يوم عاد
أخى من المدرسة فحذف بكتبه إلى المائدة ثم أشار إلى أن
أتبعه ، ودلفنا سوياً إلى حجرتنا فهمس فى أذنى :
— أين أبى ؟

— لقد خرج .

— إلى أين ؟ ألا تعرف ؟

— إلى المقهى أو الجامع .

— إسمع . . لقد حصلت على شيء عجيب جداً . ماذا
تظنه ؟ .

وهزئت رأسي متسائلاً ، فاقترب بغتة من أذني ثم
همس قائلاً :

— لقد حصلت على طفل .

— طفل ؟ طفل حقيقي ؟

— أجل . . أجل . . لقد وضعته في العشة على الشاطئ
وسنتسلل الآن إلى هناك .

— ولكن كيف حصلت عليه ؟

— لقد عثرت عليه .

— وهل هو ملكنا الآن ؟

— ملكي أنا ، ولكني سأعيرك إياه في غيبتى عنه .

وعدونا إلى « العشة » ، وهناك وجدنا الطفل يبكي فرفعه
أخى بين ذراعيه ، ونظرت إليه وقد تملكني الإعجاب
وقلت في دهشة :

— إنه طفل حقيقي ! !

ثم وجهت الحديث إلى الطفل أسأله :

— كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبنى بكلمة ، فقلت في نفسي ربما كان أبله ،
أو أصم لا يسمع ، ولكن أخى أخبرنى أنه لم يتعلم الكلام
بعد ، وأنى كنت مثله فى يوم ما . . فلم أصدقه لأنى لا أذكر
أننى كنت لا أستطيع الكلام يوماً .

وطلب منى أخى أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب
إلى الدار فيسرق له قليلاً من اللبن . كما طلب منى أن أغنى له
إذا بكى ، فقلت له :

— هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أخى ، وجلست إلى جوار الطفل وتبادلتنا
النظرات ، وسألته عن اسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! !
وخطر لى أن أحمله بين ذراعى كما فعل أخى ، وحملته فعلاً ،
ولكننى سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعتة جانباً
وجلست بجواره ، وأحضر أخى اللبن فجرعه الطفل بنهم ،
ثم طلب منى أن أعود إلى الدار حتى لا تقلق والدتنا .

وعدت إلى الدار فوجدتها جالسة ترقق بعض ثياب أبى
فسألتها قائلاً :

— عندما كنت طفلاً . . أكنت حقاً لا أتكلم ؟

ونظرت إلىّ فى شيء من الدهشة وهزت رأسها بالإيجاب
فعدت أسأل :

— تماماً كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

فأجابت ضاحكة :

— أجل .. مثلها تماماً .

— ولكن الطفل خير من القطعة ، ومن الكلب أيضاً .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخى ، فتناولنا العشاء وذهبنا

إلى الفراش ، وكان رأسى مشغولاً بالطفل ، وبما أنوى أن

أفعله معه ، وأى إسم سنطلقه عليه ، ولم يكبد يستقر بنا المقام

على الفراش حتى سألت أخى :

— بماذا نسميه ؟

فدفعنى أخى بيده قائلاً :

— اخفض صوتك وإلا سمعونا .

فكررت السؤال فى صوت هامس ، ولكنه أعلى من

الصوت الأول . فأجبنى بقوله :

— لم أفكر بعد .. هل تقترح شيئاً ؟

— « بوبى » .

— لا تكن غيباً .. إن هذا اسم كلب .. إنى أرى أن

نسميه « عادل » .

— « عادل » إسم لا بأس به ، ولكنى أفضل إسم

« بوبى » !!

— قلت لك إن هذا إسم كلب . . فلاتسكن عنيداً . . .
ثم لاتنس أن الطفل طفلي ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .
وسمعنا صوت أبى وأمى يذهبان إلى الفراش ، وأطفىء النور
وساد السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :
— سأذهب إلى الطفل لألفه بإحدى « الفوط » وأنومه .

— أتعرف كيف تنوّمه ؟

— أجل . . . إنى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل
النوم ، عندما كنت فى مثل سنه .

وكان أخى يذكر عنى كل شىء وأنا طفل . أما أنا فكنت
لدهشتى لا أذكر عنه شيئاً ! . . لقد كان لاشك أكثر ذكاء ،
وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه
سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب
إلى المدرسة كعادته . . ولم يعلما شيئاً عن بقائه طيلة اليوم
فى الكوخ بجوار الطفل وكان متعباً ، بعد أن قضى الليل
طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، إلى
أن اضطر إلى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والأعياء .
وقضينا يوماً لطيفاً مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث

أسنان ، وبدالى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب
فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى
أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لىكى تتولى
أمر الطفل . . فهى ولا شك أقدر منا على تولى أمره
والعناية به . . فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه
الأمور . . وهى على أية حال لا بد أن تتدرب من الآن على
ذلك . . ولا شك أنها ستسر كثيراً بالطفل . . فهو طفل
« جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيراً ما يحدثنى عن سوسو . . وهى ابنة
جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج
من المدرسة فيشتري طائرة ليطيرها سوياً إلى بلاد بعيدة . .
وأنبأنى أنها لم تمنع فى الفكرة ، بل رحبت بها ، . . وقد سألته
إن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيراً .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت
تنظر إلى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى
رفق متسائلة :

— أهذا هو ابننا . . ؟ إنه جميل جداً . . إنه يشبهك
كثيراً . . ما اسمه ؟



فقلت في عجلة :

— بوبي !! .

فنظر إلى أخي شرراً ثم قال بلهجة تشبه كثير أهجة أبي :

— يا لك من حمار !! قلت لك إن هذا اسم كاب .

ثم التفت إليها قائلاً :

— اسمه عادل .

وكانت موصو في تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ،

فنظرت إلينا نحن الإثنين شرراً وقالت بنفس لهجة أخي :

— يالكما من حمارين . . . إنه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نتيئنه فإذا به حقاً بنت .

ونظر إلى أخي قائلاً بعد برهة :

— اذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو إلى الدار ، وفي الطريق أبصرت جماعة

من أهل البلدة بينهم « شيخ البلد » وقد ساروا كأنهم يبحثون

عن شيء . . فلم آبه لهم وانطلقت في طريق ، وعندما وصلت

إلى الدار وجدت أبي قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسي

المدرسة وسمعه يقول له :

— أجل . . منذ يومين . . اليوم وأمس . . لم نر له

وجهاً .

ونظر إلى أبي نظرة أوجست منها خيفة ، وسألني :

— أين أخوك ؟ .

— على الشاطئ .

— قل له أن يحضر .

وانطلقت إلى أختي أسوق إليه النبا ، ورأيت الاصفار

قد علا وجهه ، ثم التفت إلى سوسو قائلاً :

— أبقى مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبي أمسك بيد أخي وسحبه إلى مخزن

الحبوب ، وبعد برهة عاد إلينا وحده وسأله أمي :

— أين الولد ؟

— لقد حبسته في (الحاصل) . . إنه يأبى أن يقول

أين كان في خلال هذين اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام

حتى يقول الحق .

وحاولت أمي أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة

صارمة . .

وفي المساء تعشيت وذهبت وحدي إلى الفراش ،

وقد شغلني التفكير في أخي وسوسو والطفل ، ولم أكد

أحس أن أبي وأمي قد ذهبا إلى فراشهما حتى قمت إلى النافذة

وقفزت منها ، فمقطت على ركبتى وأحسست بالدماء تسيل
من إحداهما .

وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة الخالكة ، والخوف
يتملكنى وخیل إلى أنى أبصر أشباحاً تترافض أمامى ،
ولسكنى حاولت أن أهديء نفسى ، ووصلت إلى (الحاصل)
وصحت أنادى أخى فى صوت هامس مبجوح ، فأجابنى
أخيراً ، وسألنى أن أذهب إلى الشاطيء لأرى ماذا فعلت
سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولسكنى رأيت
شيئين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف
وتسمرت قدماى فى الأرض وقلت لأخى إنى أبصر أمامى
عفريتاً وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأنى واهم ، ولسكنى
أكدت له أنى أبصره هناك واقفاً فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود إلى الدار
وأخبر أُمى .. ولسكنى رأيت العفريت يقترب منى فصصحت
مستنجداً وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت إلى
الشاطيء وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على
ساقها وأخذت تربت عليه وتغنى له .. ثم سألتنى عن أخى

فقلت لها إن أبي قد حبسه . . . ولكنني لم أكد أتم قولي حتى
أبصرت أخى قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من
نافذة (الحاصل) .

وفي نفس اللحظة سمعنا في الخارج وقع أقدام كثيرة
وأصواتاً تتحدث ، ثم أبصرنا حشداً من الناس يقتحم
« العشة » . . . واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذي
حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شيء ،
وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم إلى
العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكأ كأوا على أخى وخيل
إليّ أنهم يتآمرون على إرساله إلى السجن ، وتسلمت من بين
الجمع وهممت بأن أعدو إلى الدار لأخبر أبي . . . ولكنني
تذكرت العفريت . . . فعدت إلى سوسو وهمست في أذنها
بأن تذهب فتخبر أبي .

ورأيت الشرطي قد أمسك أخى فهجمت عليه وضربتة
بقبضة يدي ، وصحت في الجميع إن هذا الطفل هو طفلنا ،
ولكنهم لم يحسوا بي واستمروا في نقاشهم وهرجهم .
ونجأة لمحت أبي بجسمه الطويل قد أقبل في الظلمة ،

وبجوارده سوسو تعدو إلى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس
ووقف الشرطي مكانه وبدأ لي جلياً أن الجميع كانوا يخشون
أبي تماماً كما نخشاه . . لقد كان رجلاً مخيفاً .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا
نعود أدراجنا دون أن نأخذ الطفل فقللت لأبى :

— إننا لم نأخذ طفلنا . . إن أخى هو الذى وجدته ،

وهو إبنه ، هو وسوسو .

ولكنه جذبني من يدي ودفعتني أمامه . . .

ولم نسر عدة خطوات . . حتى لحقت أمراً جلالاً ،
واكتشفت شيئاً خطيراً .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء !!

وقرعت أخى . . . وأشارت إلى الحذاء . . فعلت
وجهه علامات الذعر وبدأ عليه كأنه ينوء تحت حمل ثميل
من المصائب ، وأنه قد أضى في حالة يأس .

ودخلنا إلى الدار وأقبلت أمى تحتضن أخى . . ولم
ينبس أبى ببنت شفة ، ولكنى لم أشك في أنه قد أعد لأخى
عقاباً خطيراً . . فقد كانت الجرائم متعددة : غياب عن
المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيراً صورة الكلاب التي
لا شك في أنه اكتشف وجودها في الحذاء .

ودلفنا إلى حجرتنا في سكون ، وربت على ذراع أخى
وقلت له أهدىء من روعه :

— لا تخش شيئاً .

— إني لا أخشى شيئاً . . لأنه لن يستطيع أن ينالني
بسوء . . . سأهرب من الدار ولن أعود أبداً . . فليست
من اللحم حتى أنتظر لكي أموت من الضرب .

— إذن سأسافر معك .

— حسناً سوف ندبر أمرنا معاً .

— وسأطلب إلى أمى أن تفر معنا أيضاً .

— لا تكن أحمق . . . إياك أن تذكر لها شيئاً

عن ذلك .

— ولكننا لا نستطيع تركها وحدها .

— إذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتاً عجيباً لم أعتد سماعه من

قبل . . سمعت أبى يضحك !!

وأرهفنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك

فعلاً . . وسمعناه يقول لأمى :

— ألم ترى إبنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة . . أتذكرين

عندما كنت طفلة . . وكنت تحملين الوسادة على كتفك

وتدعين أنك قد أنجبت طفلة . . وتطالبين منى أن أحضر لها
اللبن ؟ لقد كان ابنك خيراً منا فقد سرق طفلة حقيقية
وأعطاهما لسوسو . . لقد أنجبا طفلة « جاهزة » . أتذكرين
ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

— ليت الليالى التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة . . وأردف أبى يقول .

— لقد وجدت فى الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة . . وخيّل إلى أنى أستطيع

أن أسمع دقات قلبى ، وسمعت أبى يقول :

— أخبريهما بأنى سأحضر لىكل منهما كلباً ، على

ألا يعيشا بالحذاء بعد ذلك .

وقفزت إلى أخى أحضضنه . . . وأخذنا نرقص

فى الحجرة . . .

